

خاتمة

"إن دور فؤاد شهاب، بل رسالة فؤاد شهاب لم تنته، ولن تنتهي في 23 أيلول. مثله من الرجال، إذا وضع التاريخ يده عليهم أحياء، قبض عليهم، جندهم إلى لا تقاعد، وحملهم المسؤولية بعد المسؤولية - مسؤولية متمادية تتبعهم كما تتبع الرجل أفعاله والنيات أعمالها".

غسان تويني
(النهار، 4 حزيران 1964)

كل رئيس لجمهورية لبنان، قبل الإستقلال وبعده حتى السنوات الأخيرة من حياة فؤاد شهاب، أثار جدلاً متشعباً ترّجّح بين الإنحياز والعداء، ونادراً الحياد، إبان سنوات حكمه كان لا يلبث أن ينحسر - بل يضمحل - عندما يخرج الرئيس من منصبه. كان ذلك الغبار الذي أحاط بشارل دبّاس وإميل إده في علاقة كل منهما بالإنّداب الفرنسي، وكأنهما يحكمان باسمه وله. وبشارة الخوري في نظرتيه إلى جيرانه العرب، وقد أغمض عينيه عن الداخل. وكميل شمعون في اجتهاده سياسة خارجية مكلفة ومغامرة. وشارل حلو في إدارته صراعاً لبنانياً - لبنانياً وعربياً - عربياً على أرض لبنان من غير يأبه لموقعه فيه، سوى أن لا ينفجر في وجه حكمه. وسليمان فرنجيه بتقويضه دور الإستخبارات العسكرية باسم استرجاع ديموقراطية قيل إنها كانت مفقودة، فخرس الإثنتين.

فؤاد شهاب، إن لم يكن وحده، كان ولا يزال الرئيس الأكثر استحضاراً للجدل السياسي والدستوري مذ كان في الحكم إلى سنوات طويلة بعد غيابه. إلى الأمام. كل قائد جديد للجيش أخبر عن أمثولة المؤسس، وكل رئيس جديد للجمهورية - وأخصّهم الذين انتقلوا من قيادة الجيش إلى رئاسة الدولة - بحث عن صورة فؤاد شهاب فيه. وكل رئيس قال إنه يريد بناء دولة جديدة في لبنان، سئل من أين يبدأ بعد فؤاد شهاب.

أعداؤه وأعداء حكمه لم يُطفئ موته غليان غضبهم، وحلفاؤه وأنصاره ظلّوا يتعلّقون بحضوره فيهم وهو مسجى تحت بلاطة في مدفن أجداده الأمراء الشهابيين.

لم تكن له شعبية بشارة الخوري وكميل شمعون، إلا أنه حافظ على الإجماع الذي أحاط بانتخابه رئيساً عندما كان يغادر الحكم. وأكثر من الرئيسين اللذين خلفهما، والرئيسين اللذين خلفاه، كان وحده من يسلم إلى الرئيس المنتخب دولة لا تحمل وزر أزمة وطنية، ولا كياناً مهدّداً، ولا جيشاً يخشى عليه، ولا ثورة شعبية.

كانت صورة فؤاد شهاب - وعهده كذلك - ماثلة في العهود التي خلفته حتى السنوات الأخيرة. طبعت الرجل وحكمه مصادقات أضحت في الحياة السياسية والدستورية اللبنانية وسير القادة والرؤساء مفارقات وسوابق، لم يخبرها كلها عهد واحد ممّن خلفه الرئيس السابق أو ممّن خلفوه. في حقبة كل منهم كان ثمة شيء من فؤاد شهاب وأسلوب حكمه سواء من أجل أن يحكموا، أو من أجل أن يغادروا بلا ضوضاء، أو من أجل أن يستدرکوا - وإن متأخرين - خطأ كان في الإمكان تقاديه.

تلك هي مشكلة الرؤساء اللبنانيين مع أول أعدائهم وأكثر وداعة وأقدرهم على الإقتصاص منهم. وهو الدستور.

كان الرجل أول قائد للجيش يُعيّن رئيساً للحكومة، فلا تقوده أحلامه إلى التمسك بالسلطة. وأول قائد للجيش يُنتخب رئيساً للجمهورية، فلا يجعل الجيش يحكم معه. وأول رئيس يرسي نمطاً مستقراً لعلاقة لبنان بجواره العربي الأصعب وخصوصاً بالدولتين الباحثتين عن أكثر من موطئ قدم في هذا البلد وهما مصر وسوريا، فلا يهدر السيادة والإستقلال. وأول رئيس يُقدم على بناء الدولة وإداراتها ومؤسساتها وأنظمتها وفق مفاهيم وآليات متطورة وحديثة وكفّية، فلا يضعها في أيدي العسكريين ولا السياسيين. وأول رئيس يولد من عهده وجود دينامي وفاعل للإستخبارات العسكرية كي يُخشى الأمن ويهاب. وأول رئيس ينحني لمدة ولاية حكمه وأحكام الدستور كي يُحترم المنصب والنص الذي ينصبه. وأول رئيس يخرج من الرئاسة إلى العزلة كي ينطوي على نفسه، فلا تلاحقه لعنة الفساد والرشوة والكسب غير المشروع واستغلال السلطة ويُشهر بسمعته. وأول رئيس يموت فقيراً.

هل يمكن، يوماً، تصوّر رئيس يموت فقيراً؟
كان فؤاد شهاب أيضاً أول رئيس يمدّ نفوذه على كل الأراضي اللبنانية من غير أن يكون شعبياً. وأول رئيس لا يصطدم بمناطق موصدة الأبواب في وجه سلطته. وأول رئيس يمنح المصالحة الوطنية بعداً اجتماعياً كي يجتذب إلى حكمه الإستقرار والثبات والطمأنينة. وأول رئيس يصنع المعادلة التي سينتبت منها خلفاؤه عندما يختبرون معنى تقدّم الأمن على الديمقراطية والعدالة والاقتصاد، وتقدّم الوحدة الوطنية على تطوّر آلة الحكم.
سوى ذلك. في كل مكان من لبنان تقريباً، لا في رؤسائه ونظامه ومؤسساته، شيء من هذا الرجل.